صورة المرأة في السينما الكولونيالية في الجزائر

قليل سارة: إشراف الأستاذ الدكتور أوراغي أحمد

جامعة أبي بكر لقايد –تلمسان

ملخص:

تعتبر السينما من أهم الفنون التعبيرية التي تتميز بقدرتها على تناول مختلف المواضيع التي تعكس واقع الفرد وما يعيشه في محيطه، والتحدث بلغته ومن ثم التأثير فيه. وقد كانت السينما الكولونيالية جزءا هاما في الجزائر حاولت عكس واقع هذا البلد كما تراه أو كما كان موجود، كما ساهمت في بلورة السينما الجزائرية، وقد كانت صورة المرأة بارزة فيها وجسدته في عدة أدوار.

– الملخص بالإنجليزية:

Cinemais one of the most important expressive arts whichischaracterized by itsability to deal withvarioussubjectsthatreflect the reality of the individual and whathelives in hissurroundings, and speak in hislanguage and then influence it. The colonial cinemawas an important part of Algeria, whichtried to reflect the reality of this country as itseesit or as itexisted. It alsocontributed to the crystallization

of Algerian cinema. The image of the womanwasprominent in severalroles.

الكلمات المفتاحية:

السينما– السينما الكولونيالية– المرأة–....

إن مصطلح السينما في أبسط تعريفاته هو الكتابة بالصور، لنه تعبير واسع الدلالات يضم كل ما له علاقة بالأفلام الرّوائية والتسجيلية وأفلام الرسوم المتحركة، والأفلام التلفزيونية وغير ذلك، كما أن فن السينما يعد من أهم الفنون التي تلعب دورا بارزا في حياة الإنسان المعاصر لما لها من تأثير ظاهر على مختلف الشرائح في المجتمع، وقد أطلق وصف الفن السابع على السينما لأنها يمكن أن تضم الفنون الستة الأخرى تحت رايتها لتستفيد منها في تركيبها، فهي بوتقة لجمع الفنون حيث يؤكد "ثروت عكاشة" على أن الفنون كلها تنزع إلى التوحد معا، وكثيرا ما تتلاقى ليكمل أحدهما الآخر، فمنذ العصر الإغريقي ومحاولات الفنانين لا تنقطع من أجل خلق عمل فني شامل يجمع الفنون كلها، وقد تجسد هذا العمل أولا في الدراما الإغريقية التي جمعت بين الشعر والغناء والموسيقى والرقص الإيمائي أمام خلفية من المناظر التي رسمها الفنانون التشكيليون...[1]

وقد تلاقت الفنون جميعها في كل نموذجي الأوبرا والباليه، غير أنها لم تصل إلى مرتبة التوازن والتكامل، واليوم تتصدر السينما لتجمع بين الفنون جميعا محققة العمل الفني المتسق الشامل في تجميع الفنون المرئية والمسموعة وأخذت تقدم المسرح والموسيقى والفنون التشكيلية كلها في عمل واحد رائع التناسق.[2]

إن السينما في العهد الكولونيالي تنتمي إلى إستراتيجية المستعمِر الفرنسي بالنسبة إلى مستعمراته في إفريقيا السوداء الرامية إلى إضفاء الشرعية على النظام

الإستعماري بإقناع الأهالي بالرسالة الخيرة للإستعمار الذي يحمل الحضارة لهذا الالشعب البائس فه بحاجة لمن يلقنه إياها ويخرجه من براثن الجهل والظلام، وحمله بالإعتراف بأنه أقل شأنا من الأوروبي وذلك بهدف التطويع، كما في فيلم "pépé le moko" من إخراج "جوليان دي فيفي" عام 1937م.[3]فلقد كان هدف المستعمر التأثير في السينما الجزائرية.

وأيضا الفيلم الذي أنجز بمناسبة الذكرى المئوية لغزو الجزائر فيلم "البلد" le bled، الذي صور في سطاوالي ل" جان رينوار" jean renoir[4]. والسينما الكولنيالية هي التي جلبها معه المستعمر أو أنتجها في الجزائر مستغلا فضاءه ديكورا، مكرسّا وظيفتها الأيدولوجية الرّامية بالدرجة الأولى إلى تزيين صورة المحتل وتصويره جالبا للحضارة والتمدن، والحط من قيمة الجزائري وتصويره بأبشع الصور ومن هذه الأفلام نذكر: المسلم المضحك le musulmun rigolo...[5]

والحديث عن صورة المرأة في السينما الكولونيالية باعتبارها جزءا من المجتمعله دوره، يعني التطرق للمرأة في فترة الإستعمار الذي شهدته الجزائر في تلك الفترة وكيف صورته السينما.

فالحركة الإستعمارية غالبا ما قدمت على أنها غزو امرأة la conquête d'une femme

حيث يظهر الأوروبي نفسه كشخصية قوية ومتعافية، في حين تبدوا الشخصية الجزائرية العنصر الأكثر ضعف وقهرا، بهذه الطريقة يتم تكوين متخيل يكون الفعل الإستعماري فيه عملية استلاء وهمية، ويتم اختزال كفاح المستعمر في لعبة بسيطة من الإغواء. إن تجميع هذه الثنائية في كثير من الأحيان بين الجزائر وفرنسا يتم في صورة غريمين، امرأة فرنسية في علاقة بالجزائري في كثير من الأحيان حيث تتخذ شكلا أفلاطونيا، فتكشف نبل وغنى الشريكين. الأكثر شيوعا كان في الجهة الأخرى من الزوجية لرجل فرنسي وامرأة جزائرية، حيث تؤول هذه العلاقة دائما إلى الفشل، في هذه العلاقة كان الرجل يتبنى وظيفة الحماية.[6]

كما صور لنا فيلم آخر صورة أخرى من النساء وهو فيلم "وجوه محجبة أرواح مغلقة" " visage voilé âmes closes" ل "henry roussel" والذي يعتبر من أكثر الأعمال تشويها للشخصية الجزائرية، حيث تناول بشكل واضح وصريح من خلال شخصية " القايد" المستهترة والمحبة للملذات والقصص الغرامية التافهة، مع التركيز على تعاون القايد مع الإستعمار وإعطائه كل ما يملكه حتى نساؤه، والمرأة هنا عكست صورة أخرى تدل على الهية والأرض.[7]

وبعد أحداث 8ماي 1945م أصبح لزاما على فرنسا التخلي عن إنتاج الأعمال التي تشتمل على عدائية واضحة وعنصرية اتجاه الأهالي لتفادي أي حالة من النقمة والنقد لدى السكان مما يؤثر سلبا على سياسة الدعاية المتبناة.[8] إضافة إلى ظهور فرنسيين معاكسين يناهضون سياسات الحكومة الفرنسية في الجزائر قاموا بتصوير ما يعانيه الشعب الجزائري من فقر وإضطهاد وحرمان، وليس الفرنسيون المعاكسون فقط من قاموا بتصوير الواقع الجزائري وإنما حتى بعض الأوربيون.

ومن بين الأفلام التي تعود لسينما الكولونيالية في الجزائر، فيلم "معركة الجزائر"للمخرج "جيلوبونتيكورفو" Gillo Pontecorvo، ويبدوا من خلال متابعة الفيلم أن المخرج الإيطالي كان على دراية كبيرة بخصوصيات المجتمع الجزائري، وأساليب مقاومته للإستعمار وكذلك على دراية بطبيعة الشخصية الجزائرية هذه السمات التي حاول أن يستثمرها في هذا العمل الضخم الذي خلد مقاومة الشعب الجزائري.[9]

وقد أشار المخرج إلى سلوك عرضه الفيلم وركز عليه كثيرا من خلال مشهد يدوم لأكثر من نصف دقيقة، الذي يعرض ردّ فعل تلك المرأة من السكير، والذي يعد دلالة على رفضها لذلك السلوك المتمثل في شرب الخمر.[10]

وكانت صورة المرأة في الفيلم محتشمة من خلال اللباس التقليدي المتمثل في "الحايك". فقد عبر من خلال هذا اللباس عن تقاليد المجتمع، سواء ما يتعلق منها بطبيعة المجتمع الذي يحرص على تستر المرأة وعدم إبراز مفاتنها، وهو اللباس الذي تحول بحسب الكاتب إلى سلاح هوياتي تلبسه الفتاة المتعلمة عن وعي بأنه يمثل خصوصيتها وثقافتها في وجه ثقافة المستعمر.[11]

كما عكس لنا المخرج صورة المرأة الجزائرية القوية التي تلغب وتساهم بدورها في الثورة الجزائرية، حيث تجسد لنا اللقطة المعروضة في الفيلم عندما كانت تَعبر الحاجز وبحوزتها سلاح وهي تصرخ في وجه الجندي الفرنسي لكي لا يلمسها لتمر وتأخذ السلاح إلى الشخص الذي ينتظرها قرب المقهى لتعطيه المسدس ليطلق النار على أحد الفرنسين الجالسين في المقهى. وهنا يظهر دورها القوي والفعال في المساهمة في هذه الثورة. إضافة إلى الدور الذي لعبته ثلاث نساء عكسن شجاعة الجزائريات بمشتركتهن في الثورة المقاومة الجزائرية، ونرى هذا من خلال اللقطة المعرضة في الفيلم، حيث تظهر النساء يحملن قنابل لينقلوها إلى أماكن معينة. فالمخرج بيّن لنا من خلال هذه الصور عن المرأة الجزائرية شجاعتها وقوتها ونضالها في تلك الفترة.

إن حضور المرأة في السينما كان بارزا فقد عكست لنا أفلام الثورة صورة عن المرأة الجزائرية التي غالبا لاتخرج عن دورها كأم وزوجة وفدائية في أحسن الأحوال، إلا أنها أدوار تجسد مفهوم اللبنة في الحركة التحريرية، بصمود هؤلاء النسوة وإصرارهن ولو بصمت على المشاركة وحماية الثورة، نلحظ ذلك في عدة أفلام مثل "دورية نح الشرق "، "الأفيون العصا"[12] وأيضا فيلم "معركة الجزائر" الذي تطرقنا إليه.

ومن بين الأفلام أيضا التي عكست دور المرأة الصامدة، فيلم "الأفيون والعصا" لمخرجه أحمد راشدي الذي درس الأدب الفرنسي والتاريخ والسينما، وقد بدأ عمله في السينما مع المخرج الفرنسي "رونيه فوتيه"[13] ، حيث يعرض الفيلم قصة مقاومة سكان قرية "تالة" للمستعمر الفرنسي، هذه المقاومة التي وظف فيها أفراد الشعب مختلف الأسلحة المتاحة، المادية والمعنوية[14]، ومن بين الشخصيات المجسدة في الفيلم "فروجة" المرأة الصامدة التي عكست صورة المرأة في فترة الثورة، وقد مثلث الدور امرأة فرنسية هي الممثلة Marie-Josée Nat.

ظهرت شخصية فروجة في الفيلم بصورة كبيرة ومكثفة في أحداثه، حيث تأثرت بمجريات الثورة بصفة مباشرة، جعلها صامدة في وجه العدو الفرنسي، وبصفة خاصة أمام "الطيب الحركي" الذي يستعمل معها كل سائل القمع محاملا من وراء ذلك معرفة مكان أخيها "علي"،

لكنه وبالرغم من هذه الممارسات ظلت المرأة صامدة كاتمة للسر.[15]

لقد مثلت الدور فطومة بطريقة فنية جيدة، حيث جعلت المتفرج الجزائري يتعاطف معها في كل الظروف، وبما أن شخصية فروجة كانت محط أنظار المشاهدين، فإن شخصيتها البسيطة أعطتها شعبية كبيرة، لأنها مثلت دور الأم التي تعني بتربية طفلها وتتألم لفقدانه، وفي المقابل فهي تلعب دور الزوجة الوفية المطيعة، والأمينة على سر أخيها "علي"، حيث حاول الفرنسيون عبثا إرغامها على الإدلاء بمكانه، لكنها وقفت صامدة، كما تحملت إهانات "الطيب الحركي"، ولم تتفوه بكلمة واحدة عن مكان تواجد المجاهدين.[16]

ومن بين اللقطات المجسدة في الفيلم، اللقطة التي تبرز سكان القرية المحتجزين في سجنهم، حيث يأتي "الطيب" العميل لإخراج "فروجة" من السجن، وللخروج يتحتم عليها أن تصعد بعض درجات السلم، الذي أولى عتباته مكسرة، ليعبث "الطيب" لإذلال القوم بوضع أحد الشيوخ منبطحا أسفل السلم، ليكون ظهره بمثابة عتبة بديلة لتلك المكسرة، ويأمر فروجة بصعود السلم للخروج، فتقف برهة أمام وضع الشيخ وكأنها تفطنت لما يريده "الطيب"، ثم ترفع رجلها لتضعه فوق العتبة الموالية متخطية الشيخ، لكن "الطيب" ينزلها بقوة ويجبرها على وضع رجلها فوق الشيخ للمرور إلى أعلى السلم.[17]

إن عمل "فروجة" في الفيلم جاء ليتكامل مع عمل أخيها في الجبال، وبالتالي لم تكن هناك قوة للمجاهدين لولا صمود هؤلاء النسوة في البيوت والمحافظة على أسرار رجالهن، وكذا الدور التقليدي المناط لهن داخل البيت من تربية للأولاد، وتحضير طعام المجاهدين.[18]

ومن هذا المنطلق تتضح صورة المرأة في السينما الكولونيالية في الجزائر من خلال الأدوار التي لعبتها والتي لم تكنتعبر في بداياتها عن الصورة الحقيقية للمرأة في فترة الثورة الجزائرية ولكن مع مرور الوقت بدأت تظهر صورتها الحقيقية.

–الهوامش:

1– ثروت عكاشة، موسوعة تاريخ الفن، دار المعارف بمصر، القاهرة، جزء 1، 1976م، ص.64

2– المرجع نفسه، ص.64

3– AbdelghaniMerherbi, les algériens au mimoir du cinéma colonial, préssede L'E.N.A.P, algérie, 1982, p246.

4– سليم بتقة، المتخيل الكولونالي من وهم المكتوب إلى زيف المرئي المضمر والمنظور، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد حيصر–بسكرة، الجزائر، ص.11

5– منصور كريمة، إتجاهات السينما الجزائرية في الألفية الثالثة، أطروحة دكتوراه، قسم الفنون الدرامية، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2012م–2013م، ص.27

6– سليم بتقة، المرجع السابق، ص.15

7–منصور كريمة، المرجع السابق، ص.29

8–المرجع نفسه، ص.29

9–بن نكاح مولاي أحمد، ملامح الهوية في السينما الجزائرية، أطروحة دكتوراه، قسم الفنون الدرامية، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2012م–2013م، ص.398

10–المرجع نفسه، ص.399

11–المرجع نفسه، ص.401

12-منصور كريمة، المرجع السابق، ص165.

13- ar.wikipedia.orgأحمد راشدي

14-بن نكاح مولاي أحمد، المرجع السابق، ص.401

15-د.جدي قدور، السينما الكولونيالية في الجزائر،أطروحة دكتوراه، قسم الفنون الدرامية،كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران،2011م-2012م، ص.141

16-المرجع نفسه، ص.141

17-بن نكاح مولاي أحمد، المرجع السابق، ص.401

18-د.جدي قدور، المرجع السابق، ص141.